شوقي على المسرح

مع مقدّمة في

التمثيل العربي

بقلم ادوار حنين

لقد كثرت الابحاث في شعر شوقي ومناحيه المتنوّعة من مدح ، ورثاء ، وتهنئة ، ووطنية ، واجتماع . وها اننا ننشر اليوم درساً راساً في «مسرح شوقي» ، وهي ناحية قلما تعرّض لها النقاد ، وان فعلوا فبأسلوب مقتضب لا يشفي غليلاً . وقد نقدّم على هذا الدرس بحث في التمثيل العربي إجمالاً ، تمهيداً لغرض شوقي من تاريخ هذا الفنّ.

المقدمة

التمثيل العربي

كانت جاهلية . . . وكان اسلام . فازدهر الادب العربي واثمر . إلا انه لم يكن فيه تمثيل . ولم يتسرّب هذا الفن الى الآداب العربية الا في منتصف القرن التاسع عشر المتصرّم . نقول ذلك اعتقاداً منا ان مقامات الهمذاني والحريري وما اليها ليست من التمثيل في شيء ، مهما كانت مزاعم بعض المستشرقين ، كما اننا لا نوافق جرجي زيدان[1] على ما قاله من ان « رسالة الغفران » لابي العلاء المعرّي تقرب من الكوميديا . والا لوجب ان نسلّم بان اقاصيص الاغاني ، لما فيها من المحاورة وغيرها من مميزات التمثيل ، هي سلسلة روايات تمثيلية . . . كلها مزاعم يصعب التسليم بها . فلا المقامات ، ولا رسالة الغفران ، ولا روايات الاغاني ، ليست من النوع التمثيلي اذا ما فهمنا بالرواية التمثيلية : « تمثيل او عرض واقعة تاريخية ام اختراعية بواسطة اشخاص تنطبق افعالهم واقوالهم على حقيقة الواقع او الاحتمال »[2]

١) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٢٠٠ ٢) المشرق ٢ [١٨٩٩] ٢٠

الخطابة والوصف، والحالة هذه، شعراء الجاهلية عن الدرس الاخلاقي الذي لا أثر له في آدابهم كما نتحققه في رحلة نقوم بها في دواوينهم.

والى للعربي التحاليل النفسانية والابحاث الاخلاقية ولا همّ له في جاهليته الا الانتقال من بادية الى اخرى يحارب قريبه على مياه بئره النزرة او على عشب مرعاه الضئيل ليضمن حياة ماشيته التي تتعلق بها حياته وحياة اهله... والعربي، وهذه حياته النقالة وحالته المضطربة، يعيش في المادّة والسادّة، قليل التأمل الداخلي، ولا سبيل الى معرفة الغير لمن اخطأ معرفة نفسه.

فضلًا عن ان الدروس الاخلاقية تتطلب من صاحبها مخالطة الجماهير فالتسرّب الى مجتمعاتهم والنظر الى الافراد والجماعات في حالات سكناتهم وحركاتهم والى كل حال من احوالهم لكي تتوافر له المعلومات فيقيس ما بينها ويبني على مقدماته النتائج. والبدوي كما نعلم رجل فردي، نئّال، بعيد عن الروح الاجتماعية، لا يخالط القوم ولا يحبّ ان يُخالَط فهو يردّد ابدًا ما قاله الطفيل بن عامر: «كنت رجلًا احبّ الوحدة»[1] يقول ما قاله بدويّ مُسلم في صلاته: «اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا احدًا».[2] وللجاحظ عن البدو في كتاب البيان والتبيين ما يدعم قولنا هذا حيث جاء: «انهم تقاربوا في المودّة وتباعدوا في الديار»[3]

وقد قرأنا للاب لامنس في مثل هذا الموضوع قوله:

«اننا لنرى صفة واحدة تتفرّع عنها جميع نقائص البدوي، وتُلخّص كل ما كان ينقص ذاك الرجل من المزايا الخُلقية، الا وهي صفة الفردية. البدوي رجل فردي.»[4]

ثم زد ان البدوي، شاعرًا كان ام حكيمًا، لم يكن واسع الخيال قويّه. وذلك لاسباب منها انغماسه في المحسوسات وكثرة اهتمامه بالامور الوضعية

١) الجاحظ: كتاب المحاسن والاضداد ١٠٢

٢) ابن حنبل: المسند ٢: ٢٨٣

٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١: ١٧٦

٤) المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ١٠٤

وكثرة تدقيقه في مشابهة الطبيعة. وقد علّل هذا النقص الاب لامنس بقوله[1]:

ان حياة البدوي في عزلته القاتمة المستديمة تضعف خياله وتميت فيه تلك القوة المنتجة. وزاد: ان نضاله المتواصل في سبيل الحياة وتفكيره الدائم بامور الغد وما يحمله له في طياته من خيرات وشرور وما يلزمه فيه من معيشة ومؤونة تمنعه من الاسترسال في الاحلام الشهية اللذيذة... حيث خلق الصور والاشباح من اللاشيء. ثم قال: ان من نتائج ضيق مخيلته انه لم يحسن استعمال ما يسميه بالجن في اختراع نظام يرتب عليه الاشخاص اللابشرية من آلهة وانصاف آلهة على نحو ما تسميه الشعوب القديمة الغربية بالميثولوجيا.

والناظر الى ما خلّفه لنا الجاهليون من الشعر يثبّت هذه الحقيقة بنفسه. وإنّا ذاكرون له بعض الامثال يرى فيها الشاعر الجاهلي في احسن المواقف وادعاها الى الشعر والسموّ، الا انها لا تستنهض اجنحة مخيّلته الثقيلة، وان فعلت قليلاً ليعود ويهوي كأنما هو طائر اجنحته من شمع ان زاد علوّه زادت مجاورته للشمس فسالت اجنحته، فهبط وكان هبوطه عظيماً.

واي شيء ادعى للخيال من ان يعود الشاعر المحارب الى ذكرى مواقعه السالفة، الى انتصاراته وفتكه وثأره لدم اخيه المهدور غدراً — اعني موقف المهلهل في رثاء كليب اخيه — فيحييها جميعها امام عينيه لينظمها شعراً خالداً؟ — لا شيء. ومع ذلك فاننا لا نرى في قصائد هذا الشاعر — على كونه من أئمة الشعر في الجاهلية — سوًا يذكر... فلنسمعه في قصيدته المشهورة:

اليلتنا بذي حُسُمٍ أنيري اذا انت انقضيت فلا غوري

حيث جاء باحسن مقاطعه ذاكراً المعارك والقتلى، فقال:

ولو نش المنابرُ عن كليبٍ لاخبر بالذنائب اي زير
وبوم الشعبتين لقرّ عيناً وكيف لقاء من تحت القبور!
على اني تركت بواردات بحيراً في دم مثل البحير
هنالك بعد بيوت بني عباد وبعض القتل اشفى للصدور

---

(1) Lammens, *op. cit.*, pp. 226 ss.

وهشام بن مرّة قد تركنا عليه القشعمان من النسور
قتيل ما قتيل المرء عمرو وجساس بن مرّة ذو ضرير

نرى ان الشاعر اقتصر على تعداد امكنة المواقع واسماء القتلى ولم يذكر فيما خصّ ذلك شيئاً عمّا كان ... فاين وصف المعركة ؟[1] ووصف القتلى يتخبطون بدمائهم ، والسيوف تتخضخض في صدورهم ... اين وصف تلوّي الرماح ولمعانها تحت النقيع ، وصليل السيوف الى جنب دويّ سنابك الخيل وكل ما توحيه من الاشباح والصور المعارك الليلية ؟ ؟ كل هذا لم يأتِ له ذكر في طول القصيدة وعرضها . نقص ناتج عن عدم وجود الخيال الفسيح . وقد تلمس ضعف خيالهم في مواقف أخرى اذ يبتدئ الشاعر منهم بعرض مشهد فترمّل نفسك ازلك ستراه كاملاً ، فما تلبث الا وتخدعك امانيك ، فيظل المشهد على نقصه . من ذلك قول المهلهل :

وصار الليل مشتملاً علينا كأن الليل ليس له نهار

وهذا :

وابكي والنجوم معلقات كأن لم نحوها عني اليحار .

وكأنها معلقات لشاعد فسيحة ، ولكنها لم تتم لسوء الحظ . ذلك من فقر الخيال .

واحب ان اقف والقراء في سبيل هذه الغاية ، تجاه معلقة عنترة ، وهي من القصائد النادرة التي يمكننا ان نلمس فيها الخيال العربي ، ان كان ثمة خيال عند شعراء الجاهليين . لقد استهل عنترة قصيدته بوصف الاطلال واستطرد الى وصف عبلة ، فوصف الناقة ، فوصف بطشه بالظالم حيث يعدّد القتلى ويصفهم وصفاً تامّاً ، فوصف شربه للخمر وكرمه ثم العود الى وصف بطشه واعماله في الحروب وبه تنتهي ... قد ابتدأت بالوصف ، وانتهت بالوصف . وليس في جميع هذه الموصوفات سوى وصف المحسوس الملموس : الاطلال ... الناقة ... المحاربين ... عبلة ... كل ما احاط بهم واعتادوا رؤيته في كل صبح ومساء .

ثم انك تسمع شعراء الجاهلية وصدر الاسلام يكثرون من ذكر

---

١) اذكر وصف « وترلو » لنيكنور هوغو

« الجن » والشياطين ، فهل تعرّض احدهم لوصفهم وتعداد ميزاتهم وتصويرهم لنا على شكل من الاشكال ؟ لا . فقد كان الجنّ ، ولما يزل ، يدل على مسمّى مبهم لا نعرف من حقيقته وارصافه الشيء الكثير . . .

قلنا ، فيما تقدم ، ما نثبت به ان البدويّ ضيّق المخيّلة ضعيف الخيال . ومن كانت هذه حاله فلا يتمكّن من ايجاد المشاهد الرائعة وتصويرها وخلق الحوادث المؤثرة المثيرة والاشخاص الحية وبكلمة : كل ما يحتاج اليه المؤلف المسرحي لتأليف رواية تمثيلية . . . او محاولة تأليفها .

وهناك اسباب غير هذه حالت دون نشأة التمثيل العربي يجب اتخاذها بعين الاعتبار اهمها ان الادب الجاهلي كان شفوياً . ومتى كان الادب على هذه الحال صعب على المؤلف ان يأتي بعمل طويل النفس مشتبك العواطف ، متعدّد الاشخاص ، كما في الرواية التمثيلية . وصعب على غير المؤلف حفظ ما طال فالذاكرة محدودة . . . وما لم يكن سيّارًا بين القوم كان لا يؤخذ بعين الاعتبار عند اولئك الشعراء الذين ينظمون وهمّهم الاكبر الشهرة .

ولا يخفى انه يتحتم على المؤلف المسرحي ، كي يتقن تأليف الروايات التمثيلية ، ان يتناسى نفسه تاركاً لمخلوقاته اي لاشخاص رواياته حرية القول والفعل بما تقتضيه اخلاقهم وطباعهم وسنّهم وجنسيتهم ومكانتهم ومرتقبهم . هذا ، والتستر وتناسي النفس ابعد الاشياء عن خُلق البدوي .

فهذه نقاط كان لها تأثيرها في عدم ظهور الروايات التمثيلية آنذاك . وهي ، وان لم تكن اساسية ، فانها تعدّ من الاسباب الثانوية التي يعتمد عليها في الابحاث الادبية .

ولنضف سبباً خارجياً له بعض الشأن في المسألة ، وهو عدم رقي المجتمع الجاهلي . اذ ان شرطاً من شروط التمثيل الاساسية رقي المجتمع .

ولا مبرّر للقول بالضد مهما دعا الى ذلك الدكتور طه حسين[1] اذ لا جدال في ان العصور الجاهلية لم تكن عصور رقي وتمدّن ، وان لم تكن كذلك

---

١) في الشعر الجاهلي : الطبعة الاولى ، ص ١٥

عصور همجية وتوحش . وانما هي عصور ليست من الرقي في شيء يُذكر . وان حالة شعب يوصف بما وصف به النبي الاعراب اذ قال « الاعراب اشد كفراً ونفاقاً واجدر ألّا يعلموا حدود ما انزل الله » لحالةٌ — من حيث الرقي الاجتماعي — لا يحسدون عليها .

اما وجوب رقي المجتمع للفنّ التمثيلي فهذا مما لا مراء فيه، ونظرة منا الى تواريخ آداب الشعوب القديمة والحديثة تقنعنا بصحّة ما تقدّمنا . متى ألّف اليونانيون رواياتهم التمثيلية ؟ متى حذوهم من اتى بعدهم من الشعوب حتى عصرنا ؟ أوَ لم يكن ذلك عندما اصبحت بيئاتهم على قسط من الرقي لا بأس به .

***

ولكن . . . لقد تصرّمت العصور الجاهلية فكان خاتمها النبي والقرآن ؛ وامتدّت العصور الاسلامية من الخلفاء الراشدين الى ايام قريبة منا ، فاضمحلّت معظم الاسباب القديمة التي كانت تحول دون نشأة المسرح العربي . اصبح الادب خطيًا بعد ان كان شفويًا ، وبلغ المجتمع مكانة عالية في الرقي والتمدن ، وتغيّرت احوال العربي نوعاً اذ اصبح في رخاء وتعدّدت لديه اسباب الراحة وتنعم بالعيشة الهادئة الهنيئة التي توفر له اسباب التفكير والتأمل . . . والاسترسال في تيّار احلامه، فتأثر خياله من محيطه نوعاً ، وتمّ له معظم ما كان بحاجة اليه لايجاد التمثيل . . . ومع ذلك لم يقدم عليه .

فما هي دواعي هذا التأخير ؟ وكيف يمكن شرحها وتعليلها ؟

ذلك ان ادباء المسلمين وشعراءهم ساروا على خطة اسلافهم ، فقلّدوهم وافرطوا في التقليد الى ان اصبح المبدع فيهم من اتقن التقليد واجاد فيه . وهذا ما حمل الدكتور طه حسين على القول في كتابه « في الشعر الجاهلي »[1] :

« فلست اعرف أمة من الامم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة على الادب ولم تجدّد فيه الا بمقدار كالامة العربية » . وزاد للبرهان « فحياة العرب

---

(١) في الشعر الجاهلي — الطبعة الاولى — ، ١٦

ارسم ١ – منظر ورقية (مأخوذة بالطيران)

(عن كتاب ابن ماوى ١٩٧٠ ...)

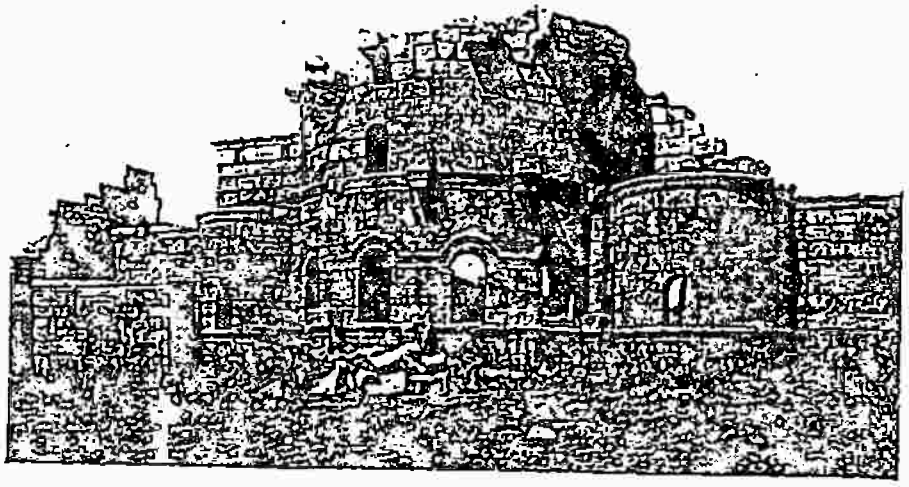

الرسم ٢ – داخل قلعة سمعان
(عن الكتاب نفسه pl. XXX, 1)

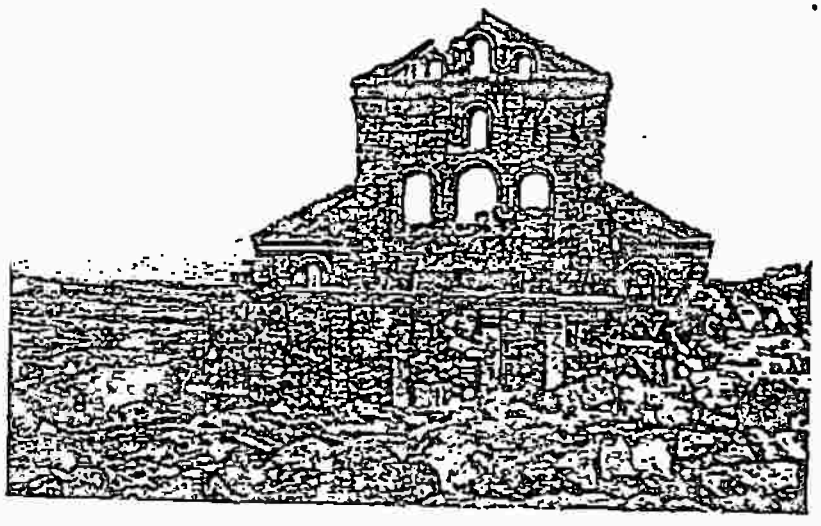

الرسم ٣ – واجهة كنيسة في بَعْيرحه
(عن الكتاب نفسه pl. XIX, 3)

الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجرير وذي الرمّة والاخطل والراعي اكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب — وهنا ترى شك الدكتور في صحة نسبة الشعر الجاهلي — الى طرفة وعنترة والشماخ وبشر بن ابي خازم» .

ولا عجب في ذلك ، ونحن لا نزال نرى حتى ايامنا هذه، جماعة من الكتاب والشعراء — مع كوننا في القرن العشرين — لا يلذّ لهم من انواع الكتابة والنظم الا تقليد الاقدمين والسير على ما عبّدوه لهم من الطرق . وهكذا قلّد ادباء العصور الاسلامية اسلافهم تقليداً كثير التقيد حتى كان لا يستطيع واحدهم الظنّ انه يحسن الاجادة حيث لم يحسنها اسلافه ، وان من الفنون الشعرية ما لم يفكّر به الاقدمون .

ولكن ان كانوا لم يؤلفوا الروايات التمثيلية ، جرياً على عادة القدماء الجاهليين ، فلماذا لم ينقلوها عن اليونان ، وقد نقلوا عنهم فلسفتهم وعلومهم من طب وهندسة ونجوم ومنطق ؟

على هذا نجيب بان اكثر ما بعث المسلمين الى النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق . . . والعلوم عامة ، وليس ما بعثهم اليه رغبتهم في آداب الغرباء وتاريخهم .

ثم ان العربي كان يفاخر الاعاجم بآدابه وكان لا يقرّ لامة من الامم بمثل ما عنده . وليس من المعقول بعد هذا ان ينقل اداب الاعاجم الى امته فيقضي على نفسه بنفسه .

هذا وربّ قائل يقول : ولكن الترجمات لا تخلو من كتب في الادب منقولة عن الفارسية والهندية كالف ليلة وليلة ، وكليلة ودمنة ، وغيرهما ، فلماذا نقلوا هذه ولم تمنعهم مفاخرتهم ، فاكتفوا بها ، ولم ينقلوا شيئاً من الآداب اليونانية ؟

فنجيب ان التراجمة كانوا ينقلون غالباً كتب الادب من عند انفسهم رغبةً في اظهار مآثر اسلافهم او جيرانهم .

فالمترجمون الفرس مثلاً كابن المقفع وآل نوبخت وعلي بن زياد التميمي المكنى بابي الحسن نقلوا شيئاً من آداب الفرس . وكذلك نقل التراجمة السريان

والحالة هذه يتحتم علينا اثبات هذه الحقيقة عن غير طريق القرآن فنستند الى الحديث حيث تتوافر البراهين ، ونجد التحريم في جلاء ووضوح اذ لا يعود للشك من سبيل . اما كيف نلمس هذا التحريم في الحديث فهذا ما نحن مظهرون:

لا يطول الوقت بقارئ الحديث الا ويرى كثيراً من الاقوال في تحريم الصور والتماثيل ، كلها مسندة الى عائشة فالنبي ، او الى النبي على غير طريق عائشة ، وهي غاية في الوضوح .

كمثل قولهم عن . . . عن النبي : «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تصاوير»[1]

وهذا : « حدثنا موسى عن . . . قال : حدثنا ابو زُرعة قال : دخلت مع ابي هُريرة داراً بالمدينة فرأى في اعلاها مصوّراً يصوّر فقال : «سمعت رسول الله يقول : ومن اظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي .» [2]

وهذا : « حدثنا ابراهيم بن المنذر عن . . . عن النبي قال : « ان الذين يصنعون هذه الصور يعذّبون يوم القيامة . يقال لهم احيوا ما خلقتم»[3]

وهذا : « حدّثنا عليّ بن عبد الله قال . . . قالت عائشة : قدم رسول الله من سفر وقد سترتُ بقرام لي على سهوة لي فيه تماثيل فلما رآه الرسول هتكه وقال : اشدّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » [4] وهذا : حدّثنا حجّاج بن منهال عن . . . قال النبي : ان اصحاب هذه الصور يعذّبون يوم القيامة ، يقال لهم احيوا ما خلقتم . وان الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصور » [5]

وهذا : « حدّثنا الحميدي عن . . . قال : كنا مع مسروق في دار يسار بن نُمير فرأى في صفّه تماثيل فقال سمعت عبد الله . . . سمعت النبي يقول : ان اشدّ الناس عذاباً عند الله يوم القيامة المصوّرون »[6] وقد ورد في صحيح ابن الاثير

---

١) البخاري – الصحيح (طبعة Krehl) الجزء الرابع : كتاب اللباس، الباب ٩٠ : ص ١٠٤

٢) البخاري – الصحيح – الجزء الرابع : كتاب اللباس ، الباب ٩٠ ص ١٠٤

٣) البخاري – الصحيح – ب ٨٩ : ص ١٠٤

٤) البخاري – الصحيح – ب ٩١ : ص ١٠٤

٥) » » ب ٩٢ : ص ١٠٥

٦) » » ٨٨ : ص ١٠٤

الجزيرة العربية الهادئة ، المطمئنة تحت راية الاسلام وصحائف القرآن ، آيات الكفر والشرك ؟

يبقى ان نتبسط في نقطة قد تكون العامل الاكبر في عدم وجود التشيل عند العرب الا وهي : تحريم الاسلام صنع الصور والتماثيل على المسلمين[1]. ولما كان التشيل نوعاً من التصاوير والتماثيل — كما سترى — فقد لحق به التحريم وقضى عليه قضاءه على غيره من الفنون.

لقد افضى البحث بالاب لامنس اليسوعي ، صاحب الدروس القيمة في الاسلام والمسلمين ، الى القول بان النبي لم يحرّم الصور في آية من آيات قرآنه[2]. انما هو تحريم صادر من المحدثين والمفسرين ، وقد دعم قوله هذا بشواهد راسخة متينة ، يمكن ان يتحقق صحتها كل من يجول بتدقيق في صفحات القرآن فلا يجد آية صريحة في التحريم.

اما الآية التي يستند اليها المحدثون والمفسرون من القائلين بالتحريم، وهي: « ذلك ومن يعظّم حرمات الله فهو خير له عند ربه . وأُحلّت لكم الانعام الا ما يُتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور » (٢٢: ٣٠) فالحق يقال انها بحاجة الى الكثير من التكلف في التأويل كي تنتج ان محمداً حرّم جميع الصور والتماثيل على اتباع دينه.

على انه مهما كان موقف النبي من هذا التحريم ، فنحن بين امرين لا ثالث لهما :

اما ان نسلم ونقول مع الفقهاء والادباء القائلين بتحريم القرآن صنع الصور والتماثيل فنكون قد بلغنا غايتنا من بحثنا ، على اهون طريق ، ونكون قد اثبتنا العامل الاكبر لعدم وجود الروايات التشيلية ، واما ان نقول عكس ما قاله هؤلاء. فننفي ما اثبتوه وما اقرّوه في القرآن من تحريم صنع الصور والتماثيل.

---

١) راجع *L'attitude de l'Islam* ، ولاسيما بحث المنون Lammens, *op. cit.*, p. 354 *primitif en face des arts figurés.*[*Etudes sur le siècle des Omayyades*, pp. 351-389]

٢) « ان القرآن لم يحرّم في آية من آياته صنع التصاوير والتماثيل. ولم يكن لهذا التحريم من معنى في الجزيرة العربية » (الكتاب نفسه والصفحة نفسها)

بخلق الله من ذوات الارواح وغيرها . وتطلق الصورة ، عند العامة ، على التمثال ايضاً[1] . هذا ، واي تواطؤ بين هذين التحديدين ... واية نسبة ؟

فلنقل قبل كل شيء ماذا تمثل الصور والتماثيل ؟ هي تمثل إما اشخاصاً واما اشياء . فان كانت تمثل اشخاصاً فهي تمثل شخصاً غائباً او ميتاً ، وعلى كل له كيانه الشخصي ووجوده المستقل وهيئته واحوال معيشته الخاصة التي لا يتفق عليها انسان آخر .

وماذا تمثل اشخاص الروايات ؟

لا شيء اكثر من ذلك . فهم يمثلون ما تمثله لنا الصور والتماثيل ، اشخاصاً كاولئك لهم كيانهم الخاص ووجودهم المستقل ومميزاتهم الفارقة وحقيقتهم المجردة غيبهم عنا البعد ... او الموت .

والفرق بين هذين الطرازين من التصوير ان الصورة او التمثال في المعنى الاول يقعان في ورق او خشب او حجر او حديد او ... وفي المعنى الثاني فهي صور تقع على صور فتخفيها حيناً وتسترها وقتاً ، صور تقع على لحم ودم ... على جسم انساني .

وهذا لعمري فرق لا يذكر من ناحية الفن ما دام القصد كل القصد منها ان « تذكرنا بالغيب حتى كأننا ننظر اليه »

واي تذكير هو ابلغ وادق من ان نرى شخصاً حياً يظهر بمظهر شخص آخر نحب تمثيله وتصويره ، فيذكرنا بشكله وتلاميحه ، بصوته ومشيته ومعظم مميزاته الخاصة ؟ ؟

واذاً فتكون الصورة في الفن التمثيلي ابلغ منها واقوى ، ومن ثم اجدر بالتحريم من الصورة في الورق او في الحجر .

ومن ثم فلا يمكننا الشك في ان تحريم التصوير والتمثيل يتناول التمثيل الروائي او المسرحي تناوله « التصوير بالكتابة » على الاقل

وانت ترى انها مسألة انتهت نظرتنا اليها تبلغ بك الى النتيجة الواحدة الاكيدة وهي : ان الاسلام يحرم الفنون المصورة التمثيلية عامة وكل ما يسميه

---

(١) محيط المحيط ١ : ١٣٢ العمود الثاني

في الجزء الاول منه (ص ١٤٢ س ٧):

« ان النار قالت: وُكِّلت بثلاثة: بمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبكل جبار عنيد، وبالمصوّرين »

وكلها تحاريم ناطقة ينهى فيها عن صنع الصور والتماثيل؛ ولا فرق، في بحثنا، أناتج هذا التحريم عن النبي مباشرة ام هو مصنوع قام بـه وضّاع الاحاديث[1]، لانه تحريم سار بين المسلمين اجمعين سيرَ الحقائق الدينية الاولية

اما كيف توصلنا، بكل هذا، الى الزعم بان هذا التحريم شامل التمثيل المسرحي ايضاً فنقول:

ان التمثيل، الذي قدّمنا البحث بتحديده فقلنا انه « عرض اخبار السلف بطريقة شائقة لا نظير لها. اذ يحاكيهم في طبائعهم وعوائدهم واقوالهم وافعالهم محاكاة بها يخيّل لنا انهم نشروا من مدافنهم وظهروا علينا بظهر الاحياء على حالتهم الاصلية كأنهم لم يغيّبوا عن عالم الوجود »، لا يختلف البتة عن التمثيل والتصوير الوارد ذكرهما في الحديث اذ ليس التمثيل بسوى ما نُعت به في محيط المحيط[2] حيث جاء: « مثل الشيء لفلان: صوّره بالكتابة وغيره حتى كأنه ينظر اليه وجاء[3]: التمثال الصورة المصوَّرة ج تماثيل. وقيل التمثال ما تصنعه وتصوّره مشبهاً بخلق الله من ذوات الروح والصورة.

وجاء فيما يخصّ الصورة[4]: الصورة هي الشكل وكل ما يُصوَّر مشبهاً

---

١) لقد دعا المحدّثين والمفسّرين والفقهاء الى هذه التحريمات أنهم كانوا يغارون على عزة الله « الخالق » ان يضاهيه بها الناس فكان يضيرهم ان يروا — لا الصور والتمثيل — ولكن ما في هذه الصور والتماثيل من التشبه بخلوقات الله، وهو تشبّه من شأنه تضليل المؤمنين في نظرهم، وهو مضاهاة، اي مزاحمة ايشة قة الفنان الالهي الذي كثيراً ما اظهره النبي بمظهر المبدع والمصوّر الاكبر، والفنان الذي احتكر لنفسه صنع الصور (راجع القرآن ٣: ٤٩؛ ٦: ٧٣؛ ٥٩: ٢٤؛ ٦٤: ٣) فتشيّع ارباب الحديث من هذه الافكار واندفعوا يُندّدون التحريمات.

٢) المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط — ٢: ١٩٤٧ — في اسفل العمود الاول

٣) محيط المحيط ٢: ١٩٤٨ — في اسفل العمود الثاني

٤) المعلم بطرس البستاني: ك. م. — ١: ١٢٣ العمود الاول

بخلق الله من ذوات الارواح وغيرها . وتطلق الصورة ، عند العامة ، على التمثال ايضاً[1] . هذا ، واي تواطؤ بين هذين التحديدين . . . واية نسبة ؟

فلنقل قبل كل شيء ماذا تمثل الصور والتماثيل ؟ هي تمثل إما اشخاصاً واما اشياء . فان كانت تمثل اشخاصاً فهي تمثل شخصاً غائباً او ميتاً ، وعلى كل له كيانه الشخصي ووجوده المستقل وهيئته واحوال معيشته الخاصة التي لا يتفق عليها وانسان آخر .

وماذا تمثل اشخاص الروايات ؟

لا شيء اكثر من ذلك . فهم يمثلون ما تمثله لنا الصور والتماثيل ، اشخاصاً كاولئك لهم كيانهم الخاص ووجودهم المستقل وميزاتهم الفارقة وحقيقتهم المجردة غيبهم عنا البعد . . . او الموت .

والفرق بين هذين الطرازين من التصوير ان الصورة او التمثال في المعنى الاول يقعان في ورق او خشب او حجر او حديد او . . . وفي المعنى الثاني فهي صور تقع على صور فتخفيها حيناً وتسترها وقتاً ، صور تقع على لحم ودم . . . على جسم انساني .

وهذا لعمري فرق لا يذكر من ناحية الفن ما دام القصد كل القصد منها ان « تذكرنا بالغيب حتى كأننا ننظر اليه »

واي تذكير هو ابلغ وادق من ان نرى شخصاً حياً يظهر بظاهر شخص آخر نحب تمثيله وتصويره . فيذكرنا بشكله وتلاويحه ، بصوته ومشيته ومعظم ميزاته الخاصة ؟ ؟

واذاً فتكون الصورة في الفن التمثيلي ابلغ منها واقوى ، ومن ثم اجدر بالتحريم من الصورة في الورق او في الحجر .

ومن ثم فلا يمكننا الشك في ان تحريم التصوير والتمثيل يتناول التمثيل الروائي او المسرحي تناوله « التصوير بالكتابة » على الاقل

واني ارى انها مسألة حتى نظرت انيها تبلغ بك الى النتيجة الواحدة الاكيدة وهي : ان الاسلام يحرم الفنون المصورة التمثيلية عامة وكل ما يسميه

---

(١) محيط المحيط ١ : ١٣٣ العمود الثاني

الافرنج بقولهم (*Les arts figurés*)

وربّ غافل يقول : ان الاسلام منع التمثيل ولكنه لم يمنع تأليف الروايات التمثيلية ؟ فعلى هذا نجيب بما هو معلوم : ان الرواية التمثيلية سميت بهذا الاسم لانها وضعت للتمثيل ، ليس غير ، فما خرج منها عن هذه الغاية فقد يكون أثرًا ادبيًا قيمًا ، وآية من آيات الفن ، وشظية من شظايا الجمال . . . قد يكون كل هذا معًا ، اما رواية تمثيلية فلا . . .

***

هكذا كانت الاداب العربية قديماً ، وما زالت في سموّ وهبوط ، في ازدهار وانحطاط ، وهي غافلة لاهية عن الفن التمثيلي ، الى ان اقبلت النهضة الاخيرة بعد تلك العصور الراقدة . فبعث نابوليون ، الى بلادنا ، جذوة من النبوغ والحياة ، من عن افواه مدافعه التي دوّت سنة ١٧٩٩ في آذان ابي الهول فافاق لصوتها الشرق ، وكان من امره ما كان .

كانت نهضة شريفة في مهدها ، نهضة لم تزل نحن من القائمين بها ، وهي لم تبلغ بعد الى حيث عقدناه عليها من الآمال .

هو نابوليون الذي قضى على الفتور ، وزرع بذور النهضة الحالية ، وهو هو الذي فتح اعيننا على التمثيل خاصة اذ اوجد بمصر اول مسرح . الا انه لم يكن في مصر السعيدة من يمثّل عليه . فتشتت هذه عن الجهاد في سبيله الى اخيها لبنان . فنبغ فيه مارون نقّاش ، اول من هبّ الى وضع الروايات التمثيلية . واليك التفصيل :

كلنا يعلم ما كان من امر نابوليون القائد عندما حلّ في مصر . جاء ومعه غير واحد من جهابذة الاطباء والمهندسين والرياضيين وغيرهم من العلماء الافذاذ الذين فضلوا الجوّ الهادئ ، وان غريباً ، على جوّ فرنسة المتكهرب القاتم الذي ارجفته الثورة الافرنسية الكبرى وجعلته شديد الوطأة على العلماء والمفكرين .

وكان بين رجال حملته العاسية رجلان قديران من اصحاب الفنون الجميلة

وكبار الموسيقيين وهما اللذان عزّزا الفنون والاداب وذلك بقيامهم بتمثيل بعض الروايات الافرنسية لقلية الضباط وترويح انفسهم وقد اشتغل الجنرال منو الشهير بتشييد مسرح للتمثيل سماه « مسرح الجمهورية والفنون »[1]

« ولكن ذلك كله ذهب في ذهابهم » كما قال زيدان :

اجل ! ان هذا لم يكن تمثيلاً عربياً . الا انه لا يخفى ما في تمثيل هذه الروايات من التأثير على ادباء مصر . وهو تأثير لا ينكر ، وان لم نشهد شيئاً من نتائجه .

كان ذلك كله سنة ١٧٩٩ . . . وقد اقبلت سنون وتصرّمت سنون ، ولم ينتج ادباء مصر وشعراؤها شيئاً مما يمكننا ان نسميه تمثيلاً . . . كانت مصر في حالها اذ ذاك تقضي على البذور الصالحة التي ترمى في تربتها المنتجة الخصبة .

وكان لنا ان ننتظر نصف قرن لنشهد في لبنان ، وفي بهر من ابهاء بيوته الضيقة ، تمثيل اولى الروايات العربية ، اعني رواية « البخيل » التي نقلها عن « موليير » الاديب اللبناني مارون نقّاش . . . ولم تمض سنتان حتى مثّل في بيته ايضاً ، وعلى مشهد من فناصل الدول ورجالات المدينة واصحابه واقاربه ، اولى الروايات العربية الوضع « ابو الحسن المغفل » او « هارون الرشيد » . وهكذا فان اول من اشتغل بهذا الفن مسيحي لبناني ، فشجع اخوانه المسلمين العربيين على طرقه لما فيه من محاسن وجمالات .

ومما لا يخفى ان النقّاش لم يهمّ بوضع هذه الروايات الا تلبية لدعوة الاقتداء بالافرنج عامة ، وخاصة بالايطاليين الذين امّ ديارهم فزارهم في عواصمهم ورأى فيها فنّ التمثيل بأبهى حلله واجل مظاهره . فلم يكد يستقر له قرار في بيروت حتى اقدم على تعريب البخيل بتصرف ، وتأليف جوق للتمثيل اقتصر على بعض ذويه واصحابه . . .

وللنقاش حسنة نحبّ ان نسجلها له ايضاً بمداد الفضل وهي انه خرج بالمسرح الى خارج داره الخاصة ، الى مكان في جانب منزله حيث مثل

---

١) جرجي زيدان : تاريخ الاداب العربية ٤ : ١٥٢-١٥٣ .

« الحسود » . . . واذا فهو الذي ارجد التمثيل وخطا به خطوة ذات شأن .

وما ان شاهد اللبنانيون آثار هذا الفتح الجديد حتى اعجبوا بها فهبوا يعرضون الروايات في المسارح الخصوصية ، والمدارس الكبرى ، والمسارح العمومية . وقد نبغ نخبة من الممثلين في بيروت اشتغل اكثرهم في هذا الفن رغبة فيه ، لا في سبيل الكسب ذُكر منهم سليم النقّاش ابن اخي مارون نقّاش ، واديب اسحق الاديب المعروف ، فترجما روايات عديدة وألّفا بعضها وجمعا جوقاً مثّل مراراً في بيروت .

وقد احدثت هذه النهضة التمثيلية ميلاً في الشعراء والمؤلفين لوضع الروايات التمثيلية ان نقلاً وان تأليفاً . فنبغ بهذا الفن النجيبان نجيب الحدّاد (١٨٦٧ — ١٨٩٧) ونجيب حبيقه (١٩٠٦ †) فخلّف الاول ، على قصر حياته ، عدّة روايات اكثرها معرّبة منها : السيد لكورنيل سماها : غرام وانتقام — هرناني لهوغو سماها : حمدان — روميو وجوليات لشكسبير سماها : شهداء الغرام — صلاح الدين : عن قصة لولتر سكوت — رواية المهدي مثّل فيها بعض حوادث المهدي السوداني .

اما نجيب حبيقه فاشهر رواياته لم تطبع بعد « كلصوص الغاب » ، وشهيد الوفاء » ، وله رواية مطبوعة سماها : « الفارس الاسود »

وقد عاصر هؤلاء غير واحد من الادباء الروائيين المسرحيين لا مجال لذكرهم وذكر مؤلفاتهم في هذا المقام .

ولم يتوقف المؤلفون المسرحيون عند هذا الحد ، فراح قوم منهم يؤلفون الروايات التمثيلية الشعرية فكان لنا منها ما يستحق الذكر كالمروّة والوفاء للشيخ خليل اليازجي[1] ومقتل هيرودوس لولديه للشيخ عبدالله البستاني

وقد توالت الروايات التمثيلية الشعرية العربية على هذا الترتيب .

---

١) جاء في تاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (ج ٤ : ١٥٧) ما يلي : « ومن اتقن الروايات التمثيلية المؤلفة في اللغة العربية رواية المروءة والوفاء للشيخ خليل اليازجي وهي الرواية الشعرية الوحيدة في اللغة العربية » قلنا : أما ان تكون المروّة والوفاء من « أتقن الروايات التمثيلية المؤلفة باللغة العربية » فكلام يقرب من الصحة ، ولكن أن يقال انها « الرواية الشعرية الوحيدة في اللغة العربية » فقول يحتاج الى اصلاح كما سترى .

السنة	اسم الرواية	اسم المؤلف
١٨٦٨	التحفة الرشدية	ابراهيم الاحدب
١٨٦٩	وشي البراعة	«
١٨٨٤	المروءة والوفاء	الشيخ خليل اليازجي
١٨٨٧	الحارث	خليل باخوس
١٨٨٩	مقتل هيرودس لولديه	الشيخ عبد الله البستاني
١٨٩١	السعادة في الشهادة	ميخائيل غبريل
١٨٩٧	تبرئة المتهم او جزاء المكر	رشيد الحاج عطيه
١٨٩٨	تنازع الشرف والغرام (السيد)	شاكر عازار – نجيب زلزل
١٩٠٣	تنصر النعمان	يوسف مراد المتوري
١٩٠٣	لويس دي غونزاغا	يوسف شلي ابي سليمان
١٩٠٤	حزب الاغتراب والاقتراب في حب الوطن	قيصر المتوري
١٩٠٩	مرآة القرون المتوسطة	الياس طنوس الحويك
١٩١١	لجة الابطال	الدكتور سليمان غزاله
١٩٢٧	الزباء او زنوبيا ملكة تدمر	احمد زكي ابو شادي

الى ان فكر شوقي بفن التمثيل فنشر :

١٩٢٩	مصرع كليوپاترا	احمد شوقي
١٩٣١	مجنون ليلى – قمبيز	«
١٩٣٢	علي بك الكبير	«
١٩٣٣	عنترة	«

نشرنا هذا الجدول توطئة لذكر روايات شوقي ، كما اننا وضعنا هذه المقدمة الطويلة تمهيدًا لدرسنا هذه الروايات درساً ادبياً خالصاً معتمدين فيه كل ما يتطلبه النقد الفني النزيه ... وعلى الله الاتكال

مآخذ

جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية – مطبعة الهلال ، مصر
الاب لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت
سليمان البستاني : مقدمة الالياذة – مطبعة الهلال ، مصر
الدكتور طه حسين : في الشعر الجاهلي – مطبعة دار الكتب المصرية ، مصر
فؤاد افرام البستاني : الروائع : ٣ الشعر الجاهلي – المطبعة الكاثوليكية ، بيروت
« « : مخطوطة في الآداب المصرية
P. H. Lammens, *le Berceau de l'Islam*, Rome.